

الحضارة الأوربية بين خطاب التنوير و وصمة البربرية

European civilization between the discourse of enlightenment and the stigma of barbarism



شريف خاصة *

جامعة محمد لمين دباغين سطيف 2

khassacherif@gmail.com

كريم كربوش

جامعة محمد لمين دباغين سطيف 2

Kerbouche.karim21@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2025/03/17 تاريخ القبول 2025/05/25 تاريخ النشر 2025/06/03



ملخص: جودة الأفكار موجبة لتغيير العالم، إذ تنزع به إلى السمو في أفق التقدم والتطور، كذا حصل الارتقاء في عوالم الإنسان منذ أقدم العصور بنسب متفاوتة، ظل خلالها العقل غارقا في زخم خيال افتراضاته، لأجل مقارنة حاجات الذات مع ضرورات الحياة. لكن ثمة اضطرابات قد تعصف بترابعية الفكر لتضعه في معترك الأزمات وعمق البؤس والمعاناة، إذ لا يقوى على مجازاة تعقيدات الحياة واضطرابيتها. حينئذ تحل قيم محل أخرى، سواء ما كان متأصلا بعلم أو ما تأصل بذات الإنسان. ثم إن للعقول النازعة قصدا بإزاء استشكالات الفكر وموضوعاته خطابات عديدة، انقسمت بين جذب ونفور. أما خطاب النفور فتمثله العقل في خطابات الإنسان في خضم مملكته، إذ يحفل واقع التواصل البشري مجليا انبثاق مظاهر سلوكية واعتمالات فعلية موصولة بدافعيات الأنانية والتوحش والعدوان، الظاهرة منه والخفية، مؤشرا على سيطرة نزعة الكراهية الدونية

* المؤلف المراسل

في حياة البشر، العالقة بأشكال العنف والصراع والإقصاء والاختلاف والصدام. ولا ريب أن المعمول في عوالمنا هو ذاك، وقد تجلت خطابات الكراهية في انقسامات العالم إلى شتات طوائف وشيع ومذاهب وأعراق وسلالات، فكانت الإثنيات والتكثرات من الصراعات آيلة إلى بربرية هوجاء، ناسفة لقيم الإنسان النبيلة، منذرة براهن يناقض فيه واقع المعمول أفق المأمول. ومن قلب المركزية الأوربية نستقصي أسباب وانعكاسات النزعة البربرية، وأثرها على قيمة الحياة، في ظل شيوع ثقافة الكراهية ضدا عن فلسفة التعايش والاعتراف. نهجنا إذ ذاك آيل إلى التحليل الموضوعي المقارب لجدل المأمول والمعمول في خطاب الفلسفة المعاصر، وسنعرض لمتون التساؤل الإشكالي الذي مقررته: أي معنى لمفهوم الأنسنة أزمنة التنوير؟ ؟ و أي راهن حضاري نرتجيه أملا في ظل بربرية متوحشة وزيف أفكار في ظل تنامي خطابات الكراهية وما آلت إليه من قلب المآلات ودلالاتها؟.

الكلمات المفتاحية: الأنسنة؛ خطاب الكراهية؛ التنوير؛ أزمة؛ الحضارة الأوربية؛

Abstract The quality of ideas is positive for changing the world, as it tends to rise to the horizon of progress and development. Similarly, progress has occurred in the human world since ancient times in varying proportions, during which the mind remained immersed in the impulse of imagining its hypotheses, in order to bring the needs of the self closer to the necessities of life. But there are disturbances that can ravage the hierarchy of thought, placing it in the arena of deep crises, misery, and suffering, because it is unable to keep up with the complexities and tumults of life. Then values replace others, whether they are rooted in knowledge or in what is rooted in the human being. . Then, minds willing to address the problems of thought and its themes have many discourses, divided between attraction and repulsion. . As for the discourse of aversion, it is represented by the mind in the discourses of man in the midst of his kingdom, because the reality of human communication is clearly filled with the emergence of behavioral manifestations and real actions related to motives of selfishness, brutality and aggression, both apparent and hidden, linked to forms of violence, conflict, exclusion, difference, and confrontation. There is no doubt that this is what is happening in our worlds. Hate speech has manifested itself in the division of the world into diasporas, sects, races, and lineages, and the

multiplicity of conflicts has led to senseless barbarity, exploding noble human values, warning of a situation in which the reality of what is done contradicts the horizon of what is hoped for. From the heart of Eurocentrism, we study the causes and repercussions of barbarism, as well as its impact on the value of life, in light of the spread of the culture of hatred against the philosophy of coexistence and recognition. Our approach then denotes a topical analysis close to the debate on what is expected and what is done in contemporary philosophical discourse, and we will present the text of the problematic question that it raises: What is the meaning of the concept of humanization in the age of Enlightenment? What civilizational bet can we hope for in the light of savage barbarism and false ideas, in the light of the growth of hate speech and the reversal of its consequences and connotations?

key words: Humanization; hate speech; Enlightenment ; crisis ; European civilization

مقدّمة:

يشهد تاريخ الفكر الفلسفي الذي ينشد الفلاسفة من خلاله إحداث إضافات ولمسات من شأنها أن تسهم في تغيير وضع الإنسانية، وبلوغ أفق التطور والتكامل البشري، وإن تعددت وتنوعت انتماءاته السياسية والدينية و الحضارية، وذلك من خاله تقديم رؤى فلسفية تؤكد على المستوى النظري المساواة والعدالة التي يجب أن تصبغ العلاقات بين المجتمع الدولي كوضع سياسي والبشرية كمطلب إنساني. تلك الرؤى التي تقرر بالاختلاف كحق واقع يجب التعامل معه بمرونة وتسامي عن كل التوجهات الايديولوجية والإثنية التي تقوم على الإقصاء والرفض وحب التحكم والسيطرة على مصير الغير لأجل ضمان المنافع وليس المصالح الذاتية ولو كان على حساب امن وسلامة الإنسانية التي تتجلى براءتها في الأطفال و النساء والشعوب التي تسعى إلى استرجاع حريتها ولو باعتماد القوة في ابسط صورها ليسمع العالم كلمتها ويتفهم موقفها ويقول كلمته بكل جرأة و صرامة ليفرض العدالة ويضمن الأمن والحرية للجميع. ويؤكد أن من واجب البشرية في مقدمتها الدول القوية أن تتجاوز أنانياتها ومنطقها البربري

لتكافح بالسلم والقوة لأجل الدفاع عن حرية المظلومين في العالم. لكن ما تعيشه البشرية يبرز الاضطرابات التي تكاد تنسف بالحلم الفلسفي الإنساني الذي دعا اليه كانط، مشروع السلام والأمن العالمي، وتؤسس لنظرية التوحش والذئبية و حق القوي في السيادة والسيطرة و واجب الضعيف في الرضوخ والهوان والعبودية وهو يعصف بتناغم الفكر ليضعه في معترك الأزمت وعمق البؤس والمعاناة، فلا يقوى على مجارة تعقيدات الحياة واضطرايبتها. فتحل قيم محل أخرى، سواء ما كان متأصلا بعلم أو ما تأصل بذات الإنسان. ثم إن للعقول النازعة قصدا بإزاء استشكالات الفكر وموضوعاته خطابات عديدة، انقسمت بين جذب ونفور. أما خطاب النفور فتمثله العقل في خطابات الإنسان في خضم مملكته، إذ يحفل واقع التواصل البشري مجليا انبثاق مظاهر سلوكية واعتمالات فعلية موصولة بدافعات الأنانية والتوحش والعدوان، الظاهرة منه والخفية، مؤشرا على سيطرة نزعة الكراهية الدونية في حياة البشر، العالقة بأشكال العنف والصراع والإقصاء والاختلاف والصدام. ولا ريب أن المعمول في عوالمنا هو ذاك، وقد تجلت خطابات الكراهية في انقسامات العالم إلى شتات طوائف وشيع ومذاهب وأعراق وسلالات، فكانت الإثنيات والتكثرات من الصراعات آيلة إلى بربرية هوجاء، ناسفة لقيم الإنسان النبيلة، منذرة براهن يناقض فيه واقع المعمول أفق المأمول. ومن خلال وضع العالم عموما و المركزية الغربية سنستقصي أسباب وانعكاسات النزعة البربرية التي تفتشت كسرطان يهلك البشرية، وأثرها على قيمة الحياة، خاصة بعد شيوع ثقافة الكراهية و أفول ثقافة التعايش والتسامح والتعاون والاعتراف. معتمدين في ذلك على التحليل الموضوعي المقارب للجدل البارز بين المأمول والمعمول في خطاب الفلسفة المعاصر، منطلقين في ذلك من فرضية وجود تعارض غير معلن بين الخطاب الفكري والسياسي لدى الغرب بين الدعوة إلى خلق سبل التعايش والتكامل بحيث تبقى الحرب والقوة وسيلة يجب تجنبها إلا عندما تفرض الحاجة الإنسانية ذلك واللجوء المتوحش والبربري

للسلاح بمختلف أنواعه لفرض سياسة أمر الواقع. وسنعرض لمتون التساؤل الإشكالي الذي مقرره: أي معنى لمفهوم الأنسنة أزمنة التنوير؟ و أي راهن حضاري نرتجيه أملا في ظل بربرية متوحشة وزيف أفكار في ظل تنامي خطابات الكراهية وما آلت إليه من قلب الملات ودلالاتها؟

المبحث الأول

الأنسنة الراهنة بين الميزولوجيا ومصادر التنوير

تمهيد: في هذا المبحث سنحرص على حلحلة خطاب التنوير الغربي وما يستغرق من تناقضات بين الدعوة إلى انسنة الحياة الإنسانية و أخلققتها ليعم العيش في سلام وتجليات التوجه البربري في أرض الواقع، إذ تخفي تلك الخطابات التنويرية التمييز بين الشعوب ومنه تحديد من يحق له أن ينعم بالسلام ومن يجب أن يعيش ضحية للبربرية المتوحشة التي تتجلى في السياسة والخطاب الممجدة لمختلف أشكال الاستعمار. مما يبين الأزمة التي لحقت بالعقل الأوربي في تعامله مع القضايا الإنسانية العادلة

المطلب الأول: خطاب الكراهية الظاهرة القاهرة

وان كان تاريخ الحضارة الغربية فيه من الرؤى الفكرية والفلسفية ثم السياسية التي دعت إلى السلام العالمي، وضرورة حماية حق البشرية في تقرير مصيرها والتمتع بحرياتها، إلا أن تلك الخطابات لم تلقى التجسيد الكلي والشامل على أرض الواقع، الذي تغلب عليه ارتجاعات الحروب و منه اغتيال كل القيم النبيلة التي تبعث الأمل لغد مستنير.

الفرع الأول: تغلب إيديولوجيا الكراهية على روح الأنسنة:

يدعي أنصاف البشرية وأصدقاء الإنسان في عالمنا أن فلسفة الحياة الراهنة، سمتها المركزية ودينها الروحي هو الاعتراف والتعايش والتسامح، وهي دعاوى مستغرقة في لجية القيمية اليوتوبية المؤجلة، أريد لها أن تشرق إعلاميا ودعائيا لأغراض لا قيمة، وقد بات الخطاب الذي يؤيدها يناقض منطقته. يحدث هذا الاستغراب الفكري الثقافي في حضارة

الغرب تأسيساً بنموذجها الذي تتمذهب بموجبها عقائدها وثقافتها وسلوكياتها، كيف لا والغرب هو السباق تاريخياً في تفجير العالم وتفتيت وحدته عبر خطط أقرتها خطابات عدائية، ليست بقاصرة بدءً بمن يكون لهم العداء فحسب، ولكن للمجتمع الإنسي قاطبة، ذلك أن الصراع محلياً كان أو إقليمياً أو عالمياً، لا شك تنعكس أفعاله وخطاباته على العالم الكوني بشكل أو بآخر. " إن ظاهرة خطاب الكراهية تثير تساؤلات حول بعض المبادئ الأساسية التي تقوم عليها المجتمعات. وقد ترتب على الاستجابات التي طورتها كل المجتمعات للحفاظ على التوازن بين حرية التعبير واحترام المساواة والكرامة إلى انقسامات وتحالفات غير مسبوقة على المستوى الدولي"¹. وإنا حين نلاحظ خطابات الفكر والفلسفة الأوربية معاصراً نجدها حافلة بعبارات القيمة والأنسنة الفاضلة، وما تضمنتها من دلالات الترغيب في العالمية الموحدة، أو ما يصطلح عليه بالعمولة الكونية بيد أن مكنوناتها أبعد بكثير مما يهتدي إلى فهمه عقل سوي، لأن أفكارهم بلغت من الجنون والاضطرابية ما يبدي تناقضاتها الصارخة مع مضامين فلسفاتهم وما يدعونه من تنوير فكري إنسي. فبالكاد يصحو البشر على هدوء نسبي حتى تندلع شرارات الحرب والصراع، لتبلغ خطابات بعض الساسة حداً من التناقضات والهديان، بما يؤثر لانتفاء الصديقة والنوايا الطيبة، التي باتت مغيبة في عصر مثقل بالاكشافات التقنية وتعاضم شأن العلم، من دون أن يستطيع إفادة الحضارة الأوربية في صنع إنسيتهم المرجوة. لقد سمت شيزوفرينياهما للاتنويرية دون إدراك مخرج لأكاذيب وعودهم الساخرة. وإنا لن نتفاجأ بطفح الكيل إذ يحيم الحقد والظلم على أمانيتهم المضللة دوناً عن ما يستبطنه منطق الضمير المبرأ من أنانياتهم المفرطة في الغدر والكراهية. وقد أجادت الباحثة 'سوزان بينيش' إيجاز فضاضة الخطاب المرعّب في العنف والكراهية، إذ شخصت مقولاته المحورية وبيان أهداف مخاطر خطاب الكراهية إذ تقول: " مفهوم الخطاب الخطير يهدف إلى عزل الأفعال التي لديها احتمال كبير لتحفيز أو تضخيم العنف، والتي تنشأ من مجموعة واحدة

وموجهة ضد مجموعة أخرى (بينيش 2012). اقترحت 'سوزان بينيش' إطارا لتحديد الفعل الكلامي الخطير بناء على : 1/ شخصية المتحدث وشعبيته، 2/ الحالة العاطفية للجمهور. 3/ أن يكون محتوى الخطاب دعوة للعمل. 4/ السياق التاريخي والاجتماعي الذي يحدث فيه الفعل الكلامي. 5/ الوسائل المستخدمة لنشرها(بما في ذلك نوع اللغة المعتمدة...) ². ولنا في بعض الدراسات المدققة واقعا نماذج تطلعننا على حيثيات الخطاب، عبر مواقع التواصل التي أضحت ميسرة وفي متناول معظم البشر.

"قامت كارمن إيرجافيكوميليتابولركوفاسيك (2012) بتحليل رسائل الكراهية الواردة في التعليقات على مواقع الأخبار الأكثر شعبية في سلوفينيا، وتمكنتا من إجراء مقابلات مع بعض مؤلفيها. وقد حددت منهجيتهم البحثية فئات مختلفة من المتحدثين، كل منها مدفوع بعوامل محددة من 'الجنود' الذي ينتمون إلى أحزاب سياسية أو منظمات غير حكومية، ويستخدمون الإنترنت بشكل منهجي لنشر الصور النمطية وتدمير سمعة خصومهم" ³.

هذا الالتجاء البديل من لدن الأشخاص أو التنظيمات المختلفة يعكس النمط الذكي الذي يغذي ظاهرة خطاب الكراهية في العالم، ومراساته المختلفة جذريا عن طبيعة الخطابات التقليدية، التي لا ترقى إلى مستوى إرباك الخصم وهزمه، ويبرز هذا الشكل بوجه خاص في مستوى الحركات السياسية محليا، وكذا على مستوى توتر العلاقات الدولية إقليميا أو عالميا، نحو ما تجلّى في مرحلة الحرب الباردة، أو ما سبقها في فترتي الحريين العالميتين الأولى والثانية. ولا ريب أن ما ساعد أولئك على رفع أفق خطاب الكراهية إلى مستويات خطيرة هو التطور التقني المذهل، وتنوع قنوات الاتصال السلوكية والاسلكية التي سنحت لهم بوضع استراتيجيات أكثر دهاء لإنماء وإشاعة الظاهرة على أكثر من صعيد. ولنا في تظاهراتها وتجلياتها الخطرة أشكال متعدد مثل الجرائم الإلكترونية.

الفرع الثاني: الميزولوجيا وأزمة الوعي:

كانت الأفكار دائمة الحضور في صناعة الحياة مددبت الحياة على كوكبنا، كذا العقل وحده بين قوى الذات البشرية يظل يصارع تعقيدات الحياة، برغم ثقل تحدياته المتكثرة. في الذوات البشرية ذوات ترفض الأنسنة، وتمارس فعلها المضاد في شكل ميزولوجيا أنطولوجية بديلة، تقطع على العقل روافد السيورة السوية لتدفق الأفكار أمطاراً تغدق على الحياة أمل إحياء ما ذبل منها. ولا ريب حينئذ أن ينجلي وعينا في نمط غير النمط الذين ارتجينا سلفاً، طالما أن ثمة موانع وتقاطعات حالت دون استوائه القيمي مع ما كان يأمله. ثم إن الحكم على وعينا بالسلب والتضليل أضحي وجيهاً، له ما يبرره، إذ لم يحتكم لمقاومة ومراقبة عقلانية حقيقية، وقد آلت خيالاته العديدة إلى عجزه عن المشاركة الفعلية في صناعة المعرفة الحقة. ولأجل ذلك أعلنت خطابات بديلة (ثورية) قلب المسارات وتحيين فرص العودة الرشيدة لعقد ميثاق ذاتي ذاتي، وآخر ذاتي موضوعي لغرض توحيد الوعي الخلاق عن كل مواضع الاضطرابية الميزولوجية (التي تؤدي إلى كراهية العقل وما يلحق به من نشاط وفعالية). من الضروري أن يتدخل الوعي في كل مجريات النشاط العقلاني للفكر، مثلما " يمكن للوعي أن يتدخل في سير عملية المعرفة نفسها، وفي الفكر أو الفعل، وأن يشكل اللحظات التأملية للمعرفة والفعل والفكر وعليه يمكن للفكر أن يفكر في نفسه أثناء عملية التفكير، ويمكننا أن نضع فكرنا باستمرار على مدار وجهة النظر الشمولية الواعية، ثم نرجعه إلى وجهة النظر القيادية، مغيرين بهذا المعرفة والفكر والفعل بموجب الوعي... لكن هشاشته تجعله عرضة لكل الأخطاء التي تقع فيها المعرفة البشرية... إن الوعي المضلل أسوأ من عدم الوعي، لأنه مقتنع بأنه الوعي الحقيقي والوعي السيئ المطمئن هو أسوأ أنواع الوعي"⁴. " يتقدم الخطأ والجهل والعمى في كل مكان، في نفس الوقت الذي تتقدم فيه معارفنا... لا يكمن السبب العميق للخطأ في الخطأ بالفعل (إدراك خاطئ) أو الخطأ المنطقي (عدم الانسجام) بل في صيغة تنظيم معرفتنا في شكل نسق من الأفكار (نظريات ايديولوجيات)"⁵. لطالما حيل بين المعرفة وبين الجهل، إذ لم يقو

العقل الناظر، الناقد المتحرر من تجاوز شراسة الجهل وهو يقتحم الأفكار ليوقع بها التوهّمات والتخمينات اللاعقلانية الزائفة. لا شك أن نفسا استوطن في معقلها الوهم الناشئ عن تدفقات الجهل المغلوطة يساورها على الدوام كآبة وحرّج يحولان دون انكشاف الضياء الذي يفترض سطوعه من عقل متحرر. " فإن الخطأ والوهم هما المشكلتان الإدراكيّتان المستديمتان للذهن البشري، وعليه فقد تعرضت المعرفة البشرية وما زالت تتعرض إلى يومنا هذا إلى أخطاء واهام كبيرة... وهي أخطاء ذات طبيعة فردية (الكذب على الذات والذكريات الخاطئة، والكبت اللاواعي والهلوسات العقلية المفرطة وما إلى ذلك) وذات طبيعة ثقافية واجتماعية (ترسخ ثوابت ومعايير ومحرمات ثقافة ما) وذات طبيعة نموذجية (حينما يفترض مبدأ المعرفة المنظم الفصل حيثما توجد الوحدة والوحدة حيثما توجد التعددية والبساطة حيثما يوجد التعقيد)"⁶. إن الثورات الحاسمة في تاريخ معارفنا، وكذا تجاه ما نعينه بتقدمية الحياة، ودرابتنا بالحقائق الكونية يفترض أن تنقل المجتمعات العالمية نقلات أكثر عقلنة واستيعابا لضرورات الحتميات الحضارية المرتقبة إبان كل زمن وفي كل عصر من عصور البنى التقدمية الفاعلة حقاً، وذاك ما تمثلته البشرية في مطلع القرن العشرين إذ حصل التحرر وانبعثت الأفكار والأطروحات المنوّهة بإشراقات عصر الأنوار. لكن الذي تحقق تباعاً خلال أزمنة ما يسمى بعصور الأنوار المستجدة في القرن العشرين هو تكريس فلسفة الغزو والهيمنة والتسلط، حين تم تقسيم بعض بلدان العالم الضعيف هبات مهداة لدول التسلط والهيمنة، فكانت الثورات الكولونيالية حدث العصر ودونه عدم. لم يعبأ حينها الساسة وصناع القرار بخطابات الأنتلجانشيا الأوربية من فلاسفة وعلماء وقانونيون وحقوقيون ورجال الدين والأخلاق إذ كانت تحت على الغيرية الشمولية ونبد العنف والكراهية وأشكال شيزوفرينيات الحياة الندية. ولا ريب إذ ذاك أن ثقافات وعلوم العصر الذي تنتصر فيه الصراعات والهيمنات التسلطية اللامشروعة على ما يتوجب على العقل الإيمان ثم الانتصار له من معارف ونظريات وأنساق تؤسس لعالم

الإنسان السيد السعيد في كونيته الشمولية. ولنا شواهد على عصرنا إذ نرتد بالذاكرة إلى عصر التار والدمار الذي لحق بالبشرية إبان الحربين العالميتين، حيث امتزج التطور العقلاني الذي هو دال على نورانية الحياة بظلامية الحروب والتهديدات المتتالية التي طالت أمن واستقرار العالم. "والواقع أن هاتين الحربين لم تكونا قاتلتين ومبيدتين للشعوب، ولم تكونا فقط تدفق الهمجية الخارجة من قلب الحضارة ذاتها شنتهما أمم تعد من أكثر الأمم تطورا في العالم... إن هاتين الحربين حملتا معهما أيضا أزمات اجتماعية هائلة و قطائع في الصيرورة و إجهاضات وإفساد لمسارات التحرر. فلم تولّد الحرب العالمية الأولى بين 1914 - 1918 شيوعية الجهاز فقط، التي حولت البلشفية إلى حرب مدنية وأجنبية... وليس بإمكاننا أن نعرف إلى أين كان سيذهب العالم"⁷.

المطلب الثاني: البربرية الأوربية ومصادرة خلاصة التنوير:

تمهيد: وإن كان العنف صوت خفي في الذات البشرية فهو كذلك مصحوب بصوت العقل والحكمة، فحب الذات لذاتها لا يلغي المساحة الشاسعة لحب الخير للجميع في الذات البشرية، لكن جراء المتغيرات التي شهدتها الحضارة البشرية أصبح العنف والبربرية شتمت ملازمة لمختلف منجزات تلك الحضارة، وهذا ما يجعل بعض الخطابات الرائجة في الغرب عموما والتي لقيت رضا رجال الحكم، هي تلك التي تؤسس للبربرية والتوحش وتلبسها عنوة لباس الرحمة والإنسية.

مصادرة روح خطاب التنوير:

حين يتوجب علينا الحديث على البربرية في تمظهراتها وامتداداتها الانعكاسية أنطولوجيا، فإننا حينئذ لن نفكر إلا كما يفكر البرابرة، لأن العقل وقتئذ يتماهى مع مقتضيات وحدود التفسير والفهم لمعرفة بواطن المسائل والمشكلات في سياقاتها الأنثروبولوجية. ولما كان الإنسان هو الموسوم حيناً بسمات البربرية، فلا غرابة إذ ذاك أن تستحوذ عليه استيلايات الحياة الجاذبة ضدا عن ماتستوجه الحياة السوية للكائن

العاقل. وقد أصاب موران إذ يقول: " أود البدء بتقديم لمحة مختصرة عن أنثروبولوجية البربرية الإنسانية. فعلى طول امتداد أعمالي، حاولت أن أوضح فكرة الإنسان المفكر والإنسان الصانع، والإنسان الاقتصادي أو المنتج ظلت ناقصة. فالإنسان المفكر ذو الذهن العقلائي يمكن أن يكون في الوقت نفسه قادرا على الهذيان والحمق. والإنسان الصانع من جهته الذي يتقن صنع واستعمال الأدوات التقنية، كان قادرا أيضا منذ بدايات الإنسانية على إنتاج أساطير لا تحصى، ويعتبر الإنسان الاقتصادي الذي يعرف انطلاقا من مصلحته الخاصة إنسان الاستهلاك... أي إنسان اللعب والإنفاق والتبذير ... ففي أصل ما نعتبره البربرية الإنسانية يوجد بالطبع جانب الحق المنتج للهذيان والحدق والازدراء ". إذ لا يجتمع الحق مع الحضارة، طالما أنه يستبطن الدافعية والرغبة في الهمجية وطفح كيل الأنانية العمياء، التي تغذيها الهواء والميول والغرائز الدونية. حينئذ يتخذ الإنسان البيولوجي معنى غير معناه الإنسي الحق. وإن قدّر لإنسية الحضارة المعاصرة أن تستجمع قواها الأولى فوجب أن تعتمل ضدا عن أخطاء العقل الابتدائية، إذ حالت دون فقه معنى الحضر والتحضر. لقد طال أمد الصراع المرير بين اللذية والعقلنة، لأن في طباع الإنسان ما يؤول إلى ترسيخها عادة مستدامة، يحسم أمر الصراع فيها حين ينتصر العقل على أخطائه قبل مضيه إلى نصرة القيم والقوانين والمعايير النظامية المشكلة لصروح الحضارة المرجوة في أزمئتنا الراهنة. " الخطأ هو المشكلة الأولى والأصيلة ذات الأولوية، والتي لا زال ثمة الكثير للتفكير بشأنها ". تلك سمة الخبرات والتجارب الإنسانية التي تركت ويلاتها وخيبات أمل فضيعة، لم تترك للعقل حظا لمراجعة انتكاساته وإخفاقاته المتتالية. لقد حال الخطأ بين قيمة الحياة وتحفاتها براغماتيات الحياة. فلقد أصبحت البربرية لا تمثل شيئا خارج الحضارة، إنما هي بالمعنى المخالف قطبا معاكسا لا يمكن تجاهله للحضارة من خلاله تبرز متناقضات البشرية .

هاهنا ينتفى النظام ليحل محله العبث، حين يجلب الفوضى العنيفة. إن كثرة الأخطاء تحول بين الإنسان وسعادته، بل وتحول بين عالمي البهيمية و الأنسنة، لتستحال الحياة الظاهرة إلى موت يعجل بنهاية الإنسان. وعن مأساة الإنسان زمن الملهاة المضرة يلخص لنا الشاعر الإنجليزي 'جون دريدن' (1631 . 1700) - الذي كان أيضا ناقدا ومسرحيا - المقصد بلغة الفن ناقدا مستبصرا إذ يقول: " تأملت الحياة فوجدتها خداعا، والأمل يفتن الناس فيكرمون الخداع، والناس حمق تساورهم المقاصد في الحسرات والغوايات في الرغبات، فيتمادون في حماقتهم، ونحن لا نحيا، بل ننتظر الحياة، في البلايا الحاضرة وفي أمل الملاذ، والغد، الغد، سيشفى غلتنا كما يقال، ويأتي الغد، فيدعنا أكثر شقاء وأهات ! ما خطأ السعي الذي يفترسنا؟ لا أحد منا يريد أن يبدأ سيرة ثانية، ونحن نلعب الفجر منذ الساعة الأولى، ونحن لا نزال ننتظر، من الليل الذي يأتي، وما وعدنا به أجل أيامنا... إلخ"⁸. كل سوء منقلب بما كسبت أيدي الناس، وذاك ما جناه الإنسان ثمار أفكار مضرة، أنبتت حمقا وعنفا وانقلاب ضرر انعكست أفعاله على بيئة وحياة الإنسان الأوربي بأسا واغترابية موحشة. إنها أخطاء افتراضات واختبارات التنوير التي انتجت الموت إبان عسر الحياة. "الخطأ مرتبط بالحياة وبالتالي بالموت. على جميع المستويات، كثرة الأخطاء تؤدي إلى الموت. بل إن 'ليزليأورغل' وقلة من المفكرين الآخرين طرحوا نظرية مفادها أن الموت . على الأقل بالنسبة للحيوانات وحيدة الخلية - كان نتيجة لتراكم الأخطاء في عمل كائن الآلة، وهي أخطاء ناتجة عن مخاطر أو حوادث كمومية ناجمة عن عوامل كونية... الحياة والموت دائما ما ينطويان على مشكلة الخطأ"⁹. في غالب الأحيان تتور الأخطاء في مخيلة العاقل لتحدث ردود أفعال انعكاسية تتبادل من خلالها أفكار الحقيقة انطباعية وهم الحقيقة. وقتئذ فقط تنتصر الحقيقة لفاعلية وجراءة التفكير الجاد، حين ينتفض لدرء مفاسد التفكير. "إن ما يصبح فجأة حاسما في العاقل هو عدم اليقين والغموض في العلاقة بين الدماغ والبيئة. عدم اليقين هذا ينبع في المقام الأول من انحدار

البرامج الجينية في السلوك البشري وتطور القدرات الإرشادية والإستراتيجية (الكفاءات) لحل المشكلات ... وبهذا المعنى فإننا للعبة ذاتها التي تسمح بالمرونة والإبداع تنطوي على مخاطر الأخطاء، والإنسان العاقل محكوم عليه بما يسمى أسلوب "التجربة والخطأ"¹⁰. إن مكن تعقيدات الحياة البشرية ذو صلة بالفراغ الذي تعاني ويلاته الشعوب المضطربة، حيث يستفحل في بيئتها التعقيد وردود الأفعال بدل الأفعال. إن بيئة البشر محفوفة بمكاره الحياة مثل العنف والصراع والموت وغيرها، تحيل الهمم الإنسانية إلى طاقات سلبية عدوانية، ندية للحياة الإنسانية.

المبحث الثاني: اختلال ميزان الحضارة الغربية

ليست الحضارة إلا منجز بشري يسعى من خلاله الى تحقيق آليات الأمان والسعادة لكن لأسباب ستناولها اختل ميزان الحضارة وتغير مقصدها، الذي أصبح يتمثل في الرفاه والسيطرة، فغاب بذلك صوت القيم والأخلاق الراقية و أصبحت البربرية هي الغالبة، التي تعد أوروبا والغرب عموما بنزعتها الاستعمارية الناطق الرسمي لها.

المطلب الأول: البربرية واغتيال الإنسانية الأوربية:

الفرع الأول: نماء البربرية التاريخي: إن بربرية الحرب موصولة بعمارة الإنسان للأرض منذ أقدم العصور لا تنفك تبارح أزمنتها التاريخية. فماضي الشعوب والأمم هو ماضي الخوف والتمرد، ستمته تقلبات حياة البشر من دون أمن وأمان وقد فكر العقل لأمد ولا زال، ولكنه لم يعثر على عقال لجنون أفكاره المشحونة بالسلب والشّرور فنمت البربرية في معقل الحضارة. "ومع ذلك فهذه المجتمعات أنتجت إلى جانب البربرية ازدهار الفنون والثقافة وتطور المعرفة وظهور نخبة مثقفة. وهكذا فالبربرية تشبه جزءا مكونا للحضارات الكبرى... ليست البربرية مجرد عنصر يرافق الحضارة، وإنما هي جزء لا يتجزأ منها. فالحضارة تولد البربرية، وبالأخص انطلاقا من الغزو والسيطرة"¹¹. والأصل أن البربرية من جهة ما هي نزوع وفعل أو رد فعل إنساني تلفه مقتضيات واعتقادات وطقوس دينية

أيضا لا تخلو من الأسطورة والفنية المصنعة بحبكة خيال، نحو ما تجدر في ثقافات البدائيين من القبائل والتجمعات البشرية الأولى، ولنا نماذج حصل التأريخ لها جاءت لاحقة على العهود القديمة رسمتها العبقريّة اليونانية، التي تركت لها أثرا في أبحاث الفلاسفة والمؤرخين، إذ تشير إلى حضور فكرة البربرية مقترنة بفكرة الحرب. وعن البربرية الدينية قال موران: " توجد أيضا بربرية دينية يجب التطرق إليها الآن. في القديم كان لكل شعب من شعوب الشرق إله حربه الذي لا يرحم الأعداء. ومع ذلك سمح تعدد الآلهة بالتعايش بين مختلف الآلهة. ولقد مكّن تعدد الآلهة عند اليونان من استقبال - فيما يبدو - إله بربري عنيف، إله السكر، إله الـ hebris: ديونيزوس Dionysos... وفي القرن التاسع عشر حينما طرح نيتشه Nietzsche السؤال المتعلق بأصل المأساة، أبرز بشكل جلي الطابع المزدوج المميز للميثولوجيا اليونانية. فمن جهة يوجد أبولون Apollon رمز الاعتدال، ومن جهة أخرى يوجد ديونيزوس رمز الإفراط. فالثنائية والتكاملية ما بين أبولون وديونيزوس هما اللتان توضحان قول هيراقليطس Heraclite: 'وحدوا بين ما يجمع وما يفرق'¹². وغير ذي اختلاف بين منطوق البربرية اليونانية في مهدها لا نشهد تحويرا أو تعديلا حضاريا واعيا في معنى ومقصد البربرية، فقد تجادلت العقيدتين المسيحية واليهودية لحد العداء البربري النافي للتعايش بينهما. فالظاهر أن العنف أكثر جلاء من أي تموضع غيره لظواهر الحياة، بل وأضحى شذوذ العقل المفكر عالق بمشكلات العنف و تظاهراتها الوحشية، التي ظل الإنسان مستهدفها بين كل الكائنات إلى الحد الذي آل إلى تأمين مجتمع الكائنات البهيمية وترقيتها كائنات سيّدة آمنة، تحظى بالرعاية أفضل من سلالات وأعراق وطوائف ومجتمعات عدة، كحال المجتمع الإنساني الفلسطيني المقهور. إذ تحاملت عليه قوى غاشمة دمرت وأبادت ونسفت بكل قيمه، إذ لم تعد منظمات العالم الحقوقية مجمعا لتأمين حقوق وكرامة الشعوب والأمم، ولكنها أضحت ذريعة علنية لتأمين غطرسة المهيمن على المهيمن عليه. فلا الأفكار البشرية ولا التعاليم الدينية المسيحية، ولا شريعة اليهود بكافلة

قداسة الدين، وما جاء به من تعاليم وشرائع هادية للإنسان لا نافية له كان يسع الإنسان من خلالها الكف عن الهمجية والصراع، أو البربرية في دلائلها المحدودة أو الكونية، إذ حاذت عن نصوصها وتشريعاتها المقررة سلفا وضعا أو نقلا موقعة تحريفات دونية كان من نتائجه بون وهوة بين الفكر والحياة. و تلك أيضا سمة الديانة المسيحية المحرّفة، إذ " أثارت المسيحية المنتصرة في داخلها تيارات فكرية مختلفة وتأويلات متنوعة للرسالة الأصلية، وعوض التسامح معها، تصرفت عبر بلورة عقيدة لا تعرف الرحمة ولا الشفقة تدين الانحرافات باعتبارها هرطقات، و تضطهدا وتدمرها بحقد باسم ديانة الحب نفسها"¹³.

وحتى على صعيد الدول من جهة ما هي كيان سياسي منظم تطرح جدلية البربرية والحضارة، لأجل تمثل التباينات الفارقة بين دول تحوز على تنظيم راق، وأخرى تحيا الهمجية، ولبعض المفكرين نظرة استثنائية للمشكلة تضمنت قراءة خاصة بينها: " يمكننا تعريف الدولة البربرية والدولة المتوحشة على أنهما متضادان. وبشكل عام فإن البرابرة هم شعب يعيش في الجبال في المناطق الشمالية من العالم بعيدا عن البحر المتوسط، من يملك أرضا قاحلة ومن يقضي وقته في خوض الحروب والعيش على التّهب، ومن لا يملك تنظيما اجتماعيا متطورا، ومن لا يملك مدنا بل قرى بسيطة، ومن يعيش بلا قوانين أو قواعد وفقا للضرورة وحدها، ومن هو عدواني، ومتهور، وطائش ومخادع، وفظ...لكي ننتقل من البربرية إلى الحضارة، يكفي أن يختفي أحد الأسباب التي كانت تجذبنا إلى هذا القطب، فننجذب حتما إلى القطب الآخر"¹⁴.

الفرع الثاني: جدل التنوير اللاقيمي والانحراف العقلانية:

كان يجدر بحضارة أوروبا أن تكون إشعاعا تنويريا لمجتمعاتها وللحضارة الكونية، ذلك أنها لا يعوزها الحاجة إلى أفكار أو نهضة علمية وفلسفية، ولكن ظل يعوزها مطلب تعبئة الحضارة بقيم الإنسان، الذي لم يدخر جهدا لأجل التنظير لها والسعي لتحقيقها واقعا

يزيح عن البشرية ثقل تعقيدات الحاضر وآلام الماضي. بيد أن الذي فاجأ الحضارة في عز تقدميتها المادية هو طغيان المادة ذاتها وتسيدها قيم الإنسان، الذي أثر وصلها بمقصد أنطولوجيته الكونية ليرتجي منها سعادة كونية. و لكن قدر الإنسان إلحاق التعاسة بسعادته المرجوة، وإلحاق أفعاله بسلوكيات الكائنات البيولوجية جمعاء. فلا العقل أثبت كينونته الفاعلة ولا الإرادة كانت حائلا دون تدفقات الدوافع الطبيعية لعقلنتها وترويضها. تلك سمة الفعل الثقافي الأوربي متجلية في مختلف النزوعات التواصلية، متخفية بينية، جاهرة بعلن المعاداة الغيرية (العرقية والإثنية) أو من جهة الاعتداد بمنطق القوة والسيادة المركزية ضدا عن تموضعات الهامش الموسوم بالضعف والتبعية. تلك آية الصراع والمهيمنة البربرية التي أبانت مقاصدها عن كراهية عدائية لكل أشكال وأنماط الحياة التي لا شأن لها بمماثلة أيديولوجية أو عقدية أو هيستورية. "إن التقنيات التي أنتجها الإنسان مثلها في ذلك مثل الأفكار ترتد ضده، وتعرض الأزمنة الحديثة أمامنا تقنية تنفلت من عقلاها بتخلصها من الإنسانية المنتجة لها... إضافة إلى ذلك تجلب التقنية نفسها بربريتها الخاصة بربرية الحساب الخالص، البارد الجليدي الذي يجهل الوقائع العاطفية المميزة للبشر"⁽¹⁵⁾. إن كثرة التضخمات اللذية اللاعقلانية تنزع عن الصنائع والمكتسبات لبوسها القيمية الإنسية، لتطمس معها أخلاق الكائن العاقل لتصيب الضمائر تعطيلات واعية أو لا واعية، تشل سلطة التأنيب ووجهة الحكم المنطقي، بإزاء ضلالية الأفكار والنظريات الموجبة لقلب دلالاتها ومعانيها، لجذب مجلبة الصراع المستدام نزوعا لتحقيق إمبراطورية سيادية لمملكة الذات كي تكون حائلا دون ما ترتجيه مملكة الكرامات. مثلما حالت الحروب والغزوات الماردة دون التمكين لفضائل الإنسان الكونية مثل الحرية والكرامة والمساواة والعدالة. ثمة حقائق صادمة للعلم والتاريخ والإنسانية نقرأها ولا يساورنا اليقين التام بشأن ناقلها لأننا لم نألف نسبتها لحضارة العقل الأوربية. يحدث شكل من أشكال التخاريف الهاذية مفارقة بينية عميقة بين فكرانية العقل وبين روحانية تعاليم الدين

وطقوسه. أقصد المسيحية على وجه الدقة وهي تنزع لتأسيس النزعة الإنسانية الأوربية. " في الواقع إذا كانت هذه النزعة الإنسانية مقبولة مبدئياً بالنسبة لجميع الناس، فإن الغرب الأوربي قد جعلها تقتصر على المنتسبين إليه، معتبراً أن الشعوب الأخرى كانت متخلفة، تعيش وفق مواصفات العهود السحيقة، أي أنها بدائية. كان 'لوسيان ليفي برول' Lucien Lévy Brühl مثلاً يعتبر البدائيين ككائنات طفولية وغامضة منحوسة داخل الفكر السحري، ونسي وجود عقلانية في كل شكل من أشكال الحضارة"¹⁶). وبالكاد نقنع أنفسنا بسخرية أطروحة ليفي برول حتى تستوقفنا أطروحات غيرها أشد غرابة وبعداً عن معاني ومقاصد الحضارة، نحو ما أشار إليه بارتولومي، إذ " أقنع السلطة الكاثوليكية بقبول فكرة كون هنود أمريكا بشراً مثل الآخرين يملكون روحاً. كانت الكنيسة ترفض قبول ذلك: فهل يمكن اعتبارهم بشراً بما أن المسيح لم يذهب أبداً إلى أمريكا الجنوبية؟"¹⁷. هذه الصور الإصقاطية ومثيالاتها توحى لتنذر بخطر محقق آلت إليه العقلانيات... يقول هوسرل: " أنا على يقين من أن الأمة الأوربية لها جذورها في العقلانية التي انحرفت عن المسار. ولكن هذا لا يدعم فكرة أن العقلانية بحد ذاتها سيئة أو أنها لا تتمتع إلا بأهمية ثانوية في الوجود الإنساني بأكمله... وعلاوة على ذلك فإننا نعترف بسهولة (وقد سبقتنا المثالية الألمانية في هذا الصدد منذ زمن طويل) بأن صورة تطور العقلانية في عصر التنوير، مهما كان ذلك ممكناً خطأ مضللاً"¹⁸. " إن أزمة الوجود الأوربي لا تؤدي إلا إلى نتيجتين: إما انحطاط أوربا واغترابها عن معناها الحيوي والعقلاني والسقوط في العداء للروح والهمجية، أو إلى ولادة أوربا من روح الفلسفة، وذلك بفضل تألق العقل الذي يتغلب بشكل نهائي على الطبيعة. إن الخطر الأعظم الذي يهدد أوربا هو التعب 'فلنقاتل بكل حماسنا ضد هذا الخطر'¹⁹.

المطلب الثاني: خطاب مكذوب وعقلانية مأزومة:

لقد أصبحت الحرب وسيلة أخلاقية عادلة في الخطاب البارز على الساحة السياسية الغربية، من خلاله أطلق على تلك الحروب الحرب العادلة، تحمل راية السلام وتهدف إلى ارجاع الحقوق لأصحابها، وكبح الدول التي دفعتها أطماعها التوسعية في التوسل بالسلح وبشكل بربري في تحقيق مطالبها، لكن ما سنوضحه هو التعارض بين تلك الشعارات و الآثار المدمرة التي تركتها الحروب التي شنها الغرب بدعوى إفشاء السلام.

الفرع الأول: التضليل وأزمة البحث عن معالم الإنسانية:

أترانا نصدّق مثل هكذا أفكار تحفل بها مجلدات وخطابات دونت في ملتقيات ومؤتمرات؟ كلا. ثمة طبع في الإنسان يصطّح عليه الكذب، ينقله لتتناقله الأجيال ثقافا كان ولا يزال مضللاً لحقيقة براءة الأنسنة، التي لا تعقل هويتها إلا بما هو أصل في شيم مملكته البريئة من أشكال الأكاذيب والمخاطرة بأمن واستقرار ووحدّة الحياة البشرية. وحين يبلغ الحد حد اعتبار بعض الكائنات (التي هي من جنسنا) ليست كائنات بشرية أو ليس بها روح، فمعنى ذلك أن عقل من أدرك هذه الاستنتاجات دون مقام الجنون ولنا أن نتساءل هل مثل هؤلاء تحمل عليهم حقاً صفة المثقف، أو المفكر، أو العالم؟. وقد لخص 'فولتير' في مؤلفه 'رسالة في التسامح' المقصد بإيجاز قائلاً: " لطالما ضلّ الكذب عقول البشر، وقد آن الأوان لكي يماط اللثام عن ذلك القدر الضئيل من الحقائق، التي يمكن الاهتداء إليها من خلال غمامات الخرافات التي تلف التاريخ الروماني ²⁰. وإن كان يجدر بنا قول الحقيقة، فحقيقة إزاحة هذه المصطلحات بحمولاتها الدلالية من كل قواميس ومعاجم اللغة مطلب ضروري عاجل غير آجل، كي لا تتوارثها أجيال تعتقد بوجود تبنيتها والدفاع عنها. ذاك الكذب الذي يجب استئصاله من مجامع اللغة ومن القواميس والموسوعات لأنه لا يفي بغرض الإنسان. الكذب حيلة تبلغ الغدر والخيانة وتفقد المرء مروءته. لأن الكذب موصول بالجنون والعنف، فجرائم العقل لا تشفع للعقل طيبة النوايا ولا نبّل أفكاره وعظيم صنائعه طالما أنّها عقيمة. لا زالت البشرية تبحث لها عن هوية،

عن عالم يحتضن الإنسانية في مملكتها الحقبة حيث الحكمة والفضيلة والعدل "بأدوات الإنسان العاقل تنفذ عمليات قتل الإنسان المجنون. فالإنسان العاقل هو نفسه الذي أباد جنسه، سكان استراليا الأصليين، والهنود الأمريكيين، وهو الذي ابتكر الرق والسجون وانطلق، من خلال القدرات العلمية والتقنية، في غزو الكون فابتكر إمكانيات موت قادرة على إباده بالتأكيد، ثمّة جزر صغيرة من الطيبة والكرم والحب داخل هذا الجنس البشري المجرم"²¹. لقد قامت الدول بادئ التاريخ على التسلط والقوة الفردية مشحونة بكراهية ونفي الآخر. لقد أضحت رحمة طائفة من البشر واعترافهم وتسامحهم وحبهم لبعضهم البعض محل سخرية ومقت من لدن صنّاع الصراع ومروجي الحروب. لا قيمة في ظل اغتيال منظومة إتيقا الحياة المأمولة في ما جادت به أطروحات ونظريات العلماء والفلاسفة وغيرهم، لقد انقلبت المفاهيم وحادثت عن سياقاتها وحولتها المعهودة إذ أضحت عقيمة، لا فاعلة، وإن سيطرت أفكار على أخرى فإن ما يجعلها متمركزة بقوة في واقع الإنسان هو نزوع العالم البراغماتي إلى تحكيم كل الذرائع والاستراتيجيات الآيلة إلى نفخ الروح في ذاتياتنا الولوعة بحب السيطرة والهيمنة والصراع أعني أن عالمنا هياً كل الأسباب والبواعث لجعل الكراهية تغمر العالم حيث للأناية مستقر. ولا تنمو الكراهية العدائية المقيتة إلا بتغذية الأحقاد السرية منها والعلنية، بدافع عقدي أو أيديولوجي أو إثني. وعن الحقد نورد نموذج النهج الكولونيالي الفرنسي. إلى ذلك يقول 'غوستاف لوبون': "حقد رجال الثورة الفرنسية على الناس والنظم وكل شيء هو أحد مظاهرهم العاطفية، التي تبدو عند البحث في نفسيّتهم، فلم يكتف هؤلاء الرجال بمقت أعدائهم، بل مقتوا أيضاً أعضاء حزبهم الخاص. قال أحد الكتاب حديثاً: 'إذا نظرنا إلى ما كانوا يصفون به بعضهم البعض، لم نر فيهم سوى الخونة والكاذبين، وبائعي الضمائر والقتلة والظالمين"²². ظلت الكراهية والحقد السيادي الهيمني سمة المجتمعات البشرية، ليست مقصورة على عقد أو زمن دون آخر، ولكن تأصل النمط السيء في طباع البشرية

ليجسد مفارقة الغالب والمغلوب (القوي ند للضعيف) ودول المركز حالت دون تقدم دول الهامش والاعتراف بها. والمقولة التنشوية لا زالت سيدة فالحق لمن امتلك القوة وواجب الضعيف الطاعة والخضوع. تلك سمة لاعقلانية منافية لروح الفكر والحضارة، كانت ولا تزال هذه الممارسات المشينة دافعا واصلا لتوسيع هوة الصراع الحضاري على أصعدة متعددة (عقائدية، سياسية، أيديولوجية وأخرى) ينتفى خلالها خطاب السلام والتعايش والاعتراف. وذلك راجع للحقد و المغالات والتعصب للانتماءات الحزبية²³. أبدا لا يأتمن الإنسان على حياته في ظل تسارع القوى الغاشمة للتمكين لفلسفتها الهيمنية. هؤلاء ليسوا أصدقاء البشرية، ما فتؤو يتربصون بقيم الحضارة لأجل النيل منها بغية اغتيال الأنسنة في عز تطور عالمها وصنائعها. "اليوم تسير القوى الحاملة للموت بسرعة أكبر من القوى الحاملة للحياة، وهي قوى تتنامى مع ذلك بسرعة، وقوى البلادة تواصل تقدمها بسرعة أكبر من قوى النباهة"²⁴.

ويعبر إدغار موران عن فلسفة التغير القيمي الأخلاقي في خطاب المعرفة المعاصر بالنظر لتغير منظومة الأفكار الموصولة بمقتضيات وتغيرات البيئة الطارئة والعاجلة، وكذا من جهة تكثر الوصايات التي تفرض منطقتها على الحياة الأخلاقية، لتخرج منشآت أكثر تعقيدا، تلقي بثقلها على الضمير، ليتحمل عبأها أوزارا وصمية، على نحو لم نعهد لها مثيل في سابق الأزمنة والعصور. يقول موران: "هذه المشاكل الضميرية لا تنشأ فقط عندما يكون هناك ضغط من السلطة السياسية أو اللاهوتية الجديدة، التي تريد التدخل في المعرفة العلمية... فالديكتاتورية الذكية تعرف اليوم أن من مصلحتها أن تترك للعلماء استقلاليتهم حتى يتمكنوا من إجراء اكتشافات يمكن استخدامها لأغراض عسكرية أو صناعية. كلا إن المشكلة الأخلاقية الحقيقية تنشأ من هذا الكم الهائل من السلطات التي تولدها العلوم ذاتها، والتي لا يملك العالم أية سلطة عليها"²⁵. يجب التعجيل بتعقيل السيرورة الفعلية التي حداها: العالم والسياسي، كي نؤسس لفهم عقلائي جديد يلزم

السياسي خضوعه لمقاصد إنتاجات العالم، بل يجب وصل القطاعات الممتدة بين فاعليات العالم وعجرفة السياسي، لإعادة تأمينها إيتيقيا. لأن الأخلاق تسري في العالم وتسمو امتداد، ولكن ما إن وقعت بين يدي السياسي حتى تتآكل ويغمرها العفن. إننا بحق بإزاء مخرجات مفارقات خطيرة، أولاها مفارقة علم النحن وقرار وفعل الأنا، كذا تنجلي خلالها مفارقة المسلمات والنتائج، وما تؤول من خلالها إلى تحييد مقارنة الحرية بالمسؤولية. إذ العالم حر ما أسهم في تنظيراته الكشفية، ولكن يلجم لسانه حين يجرو على ممارسة خطاب الاستهجان بشأن ما يحدث في نوايا وخيال السياسي.

و لسان حال العلماء يقول: " تحدث أمور خطيرة للغاية، لكن هذا ليس ذنبنا. ما نقوم به هو علم راق يسوده التفكير النقدي. التكنولوجيا شيء مختلف تماما، إنها محايدة كلسان إيسوب. لكن السياسيين، أناس السياسة أنفسهم سيئون للغاية، لذا فهم يستغلون ما تنتجه من خير استغلالا سيئا"²⁶. وأعتقد أن في راهن تفكيرنا حلقات مفرغة، ونزر من المشكلات التي غض الطرف عنها من قبل من يسمون أنفسهم بأطباء الإنسانية. إن الذي لحق بنا لا يجيد عن تيرئة العلماء أنفسهم لأنهم لم يحوزوا على كفاية ذكاء وسعة بصرية لأجل المشاركة الحقيقية في إنقاذ البشرية من آلامها، ذلك لأنهم انساقوا وراء تعظيم كشوفاتهم وتعنتوا إذ لم يفسحوا المجال لمشاركتهم ومقاسمتهم الهم الثقيل من لدن الفلاسفة. وقد يرتد الأمر لغفلة منهم أو لاستهداف مرامهم المركزي المتمثل في سيادة ومركزية العلم في الكون، بينما كان الجدر دعوة الفلاسفة وأصدقاء الإنسانية للتحامل على طيش وجنون سيادي القرار والفعل، للحيلولة دون تأليل الكون دوننا عن أخلقة الكون والحياة. " إن الثقافة والهويات الثقافية التي هي على المستوى الخام هويات حضارية، تحدد صروح التماسك والتفكك والصراع في العالم ما بعد الحرب الباردة"²⁷.

الفرع الثاني: السياسة العالمية والسياسة المتعالية: مد تحالف العالم تحال وشتان بين سياسة علمية رشيدة وبين سياسة علمية متعالية يتسيد فيه القوي بأنانيته لا بقيمته

وفضائله الإنسانية المثلى. وحين طغت المصالح استبان منطق العلاقات بين الدول والأمم²⁸. إن منشأ العداوات والصراعات الدولية يستتب حين تفرض حضارات المركز قوة ومركزية خطاباتها السياسية المرهبة، لتتخذ الثقافات البينية بين الساسة والقادة في العالم أنموذج الخطاب العمودي لا الأفقي، وحينها يسعنا أن نتحدث عن وصل لا منطقي بين منطق السياسة العالمية وبين السياسة المتعالية، التي تسعى لتكريسها أمريكا ودول الغرب عموماً. ومثل هاته الخطابات هي تعبير أشد علنية من غيره، إذ لا يتستر على منطق السياسة الهيمنية المعاصرة، طالما أن حضارات الهامش إن توفرت فيها سمات الحضارة. أضحت مهزومة مشلولة، لا تشكل خطراً حقيقياً على منافسيها. وعمل هذا الرافد يحيلنا على خلخلة مدخلات التعقيد والبؤس التي آلت إليه حضارات الهامش، وهو ما يوجب طرح تساؤلات عميقة عن سرّ توالي الانحرافات والتراجعات والإخفاقات المتتالية في سياساتها وبرامجها النمائية. لقد أضحت الحروب صائرة إلى الشبوع إذ ضيقت الخناق عن أفق السلام، فأضحى السلام شذوذاً. والعالم إذ ذاك صائر إلى التكتل لتشكيل قوى جديدة لا تحمي مصالح الإنس وكرامتهم بقدر ما تعبأ لشجب الأمن ضداً عن الترغيب في اللاإستقرار الإنسي. على هذا النحو تنمو الكراهية، وتسوء العلاقات الدولية، في ظل ترززع وانعدام الثقة والكراهية المتبادلة.

فالحضارة في زخم الصراع والبربرية تبحث لها عن مأوى وعن دلالة. " الحضارة بالمعنى الواسع هي ثقافة. كلا المصطلحين يتضمنان القيم والمعايير والمؤسسات وطرق التفكير التي أعطتها الأجيال المتعاقبة في مجتمع معين، أهمية حاسمة. الحضارة حسب بروديل هي مساحة أو منطقة ثقافية، أو مجموعة من السمات والظواهر الثقافية. ويرى 'والرشتاين' أنها عبارة عن تسلسل محدد من وجهات النظر العالمية والعادات والهياكل والثقافة... الحضارة وفقاً لداوسن هي نتاج عملية أصيلة من الإبداع الثقافي، الذي هو نتاج عمل شعب معين، بينما بالنسبة لدوركايم وماوس فهي نوع من البيئة الأخلاقية التي تضم عدداً

معينا من الأمم، حيث تكون كل ثقافة وطنية مجرد شكل معين من الكل. بالنسبة لشبنجلر الحضارة هي المصير الحتمي للثقافة"²⁹. ومنه تعدّ الثقافة الإرث المشترك بين كل ما حققته الحضارات المختلفة من مكاسب مادية وأخرى موصولة بالموروث الروحاني.

وفي الواقع لا تزال الحرب الملجأ الأخير لضمان الاستمرار العتيق للسياسة عن طريق العنف، وهذا في مجال العلاقات الخارجية، لدى الدول المتخلفة، و الواقع أن البلدان غير المالكة للأسلحة النووية أو الجرثومية هي وحدها التي يمكنها الآن أن تلجأ إلى الحل العسكري، وهما أمران لا ينبغي لهما أن يحملا لنا أي عزاء ضد عبثية الحرب. وليس سرّاً لأحد أنّ عصر الصدفة الشهير من شأنه أن يبرز في أجزاء من العالم لا يزال يسيطر على الأذهان فيها شعار((لا بديل عن النصر)) فالقوة وتعدد أوجه استعمالها متى اقتضى الأمر ذلك هو الكفيل بوضع المواثيق وفرضها على أمر الواقع كما يقول هوبز(إن المواثيق في غياب السيف تبقى مجرد كلمات)) وهذا يؤكد أن العنف واختيار الحرب أصبح حلا ضروريا لأي دولة أو شعب استلب حقه أو يرى أن حقه أصبح أوسع مما كان عليه لزيادة قوته المادية وبسط نفوذه في مختلف مجالات الحياة، ومنه يحصل على الحق في أن يغير خريطة العالم ويرسم المعالم الحضارية التي يراها مناسبة له وعلى مقاسه للحفاظ على تفوقه وسيطرته وضمان عدم بروز قوى أخرى تنافسه في هذه السيطرة على الوضع الإنساني ولو كان ذلك باعتماد القوة التي تقوم على العنف والإرهاب و صناعة الحروب وتوزيعها جغرافيا في المعمورة ، لينتفش اقتصاده. وتضمن السيطرة، وتفرض المواثيق التي تخدمها وتضمن استقرار الوضع وهو استقرار يتمشى و المصالح الضيقة للأقوياء. انه منطق الحرب التي وحدها تصنع العظمة والعظمة أما السلم والبحث عن مشروع السلام والأمان فهو حلم الضعفاء في هذا الوجود. لقد تقوض المجال أمام الرؤى المثالية التي تدعوا الى السلام العالمي، فحتى هذا المشروع الذي تتجلى مرتكزاته في الفلسفة الكانطية لا يلزم عنه بالضرورة الفصل في عدم وقوع الحرب واستعمال السلاح بمختلف أنواعه.

هذا الوضع الذي يؤكد أن الحرب ليست محرمة او ممنوعة لأنها قد تندلع لأسباب أخلاقية، إنسانية وهو ما يسمى بالحرب العادلة -الحرب الحق- ومنه يصبح استعمال السلاح متاح ومسموح به للدفاع عن السيادة أو استرجاعها فلكل شعب او دولة الحق والواجب في حماية سيادتها و حرياتها ومنه استعمال كل الوسائل المتاحة تجاه كل قوة تهدد أمنها واستقرارها. يمكن القول أن الحروب هي تجل واضح للتوحش والبربرية في تاريخ الحضارات، لكن هذا لا يلزم عنه بالضرورة القول بحتمية هذه العلاقة، لان في ذلك تشويه للثورات التي قامت بها الشعوب المظلومة لاسترجاع حريتها وسيادتها المسلوبة، وهو حق تقر بها الشرائع والقوانين الإنسانية، لأن اللجوء الى القوة والعنف هنا وأن لم يكن هو الخيار الوحيد لتلك الشعوب، لكنه أصبح خيارا ضروريا لإسماع صوتهم وتحقيق مطالبهم³⁰. وهذا يؤكد الحرب قد تكون وسيلة غير حضارية لا تحقق التواصل بل هي سببا في تمزيق اواصل الإنسانية، وتفكيك العلاقات بين الدول والشعوب وانتشار الحروب القذرة. كما يمكن أن تكون الحروب عادلة و اللجوء إليها كان الخيار الأخير، الذي يمكن أن يسكت الأصوات غير العاقلة والمتوحشة التي ترى أن من حقها استلاب حق الشعوب في تقرير مصيرها ، لأن الحوار الذي يمثل صوت العقل والحكمة لا يمكن أن ينجح إلاّ عندما يكون بين إنسان عاقل ومتعقل، فالعقل يوظف ويختار القوة والعنف لأجل مقاومة العنف، فحضور القوة والعنف لا يعني دائما أنه بربرية فإذا كان الحوار بمثابة ترياق وعلاج لاستعمالات الإنسان كفرد أو كجماعة أو كدولة للحرب، لقدترته على خلق جسور التواصل، ليعم التعايش السلمي بين الدول والشعوب، بشرط حضور الاعتراف ممارسةً على ارض الواقع وتقبل الاختلاف الذي يعد مجالا خصبا للكينونة وتعبير إيرك ويل وهو يناقش مسألة العنف واللاعنف الأمر مرتبط بالكائن البشري باعتباره الوسيلة الوحيدة لتجسيد السلم على أرض الواقع ومنه يبقى العنف والقتل العائق الأكبر لتجسيدي إنسانيتنا الخالصة، ولهذا يجب تجاوز كل تشريع أو تقنين للعنف

والبربرية، كما يجب أن يتحوّل محرك العولمة من مبدأ التنافس المتوحش بين الدول، إلى البحث عن أدوات التعاون وفرص التكامل بينها³¹.

خاتمة:

إن العولمة الكوكبية المبشر بها مطلع الألفية الثالثة مؤشر صريح لإعادة أدلجة العالم. الأفكار تغير منظومة الكون، والمفاهيم ما عادت نمطية استكانية في حدودها الزمكانية، ولكن ثمة مقاربات مثلما أن ثمة مفارقات (رغبة حياة مع استباق موت) وأمل تقدم موصول بيأس قيمي، وتحرر يحاصره استعباد وكراهية، وخطابات تشيد بالاعتراف والتسامح والتعايش مصحوبة بشحناء إثنية وصراعات عرقية اعتاد العالم على التزام الصمت حيالها. ثمة تجديلات ضمنية بين الضمني والصريح مثل الذي بين الخفي والعلني. لن تهدأ البراكين والزلازل والأعاصير التي في عوالمنا إلا من خلال الإذعان لصوت الإنسان النصير لجنسه صدقا وعدلا. كذا وجب تطهير الخطابات من شيزوفرينياها واغترابية النحوية المضللة، إذ لم تستبق شيئا من إتيقا الحياة، في عالم صيرته الكراهية عالما لا إنسيا. انه من الضروري أن نخضع العنف والبربرية السائدة لمحك الفلسفة لتحليل ومناقشة المشكلات الأساسية والأخلاقية التي ترفعها الحروب، التي أصبحت ميزة عصرنا عبر أشكال مختلفة وتجاوز الفلاسفة ورجال الفكر والثقافة والسياسة التحيز الإثني والسياسي والتفكير في مستقبل البشرية في المعمورة، والتنازل عن المصالح الضيقة التي ستحرق كل اخضر ويابس بمرور الزمن.

الهوامش:

1-UNESCO : Combattre les Discours de Haine sur internet, Paris, France, 2015, PP 11-12.

2- IBID. P 12.

3- IBID. P 12.

4. إدغار موران: النهج، إنسانية بشرية، الهوية البشرية، تر، هناء صبحي، دار الكتب الوطنية، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة، ط1، 2009، ص 137.
5. إدغار موران: الفكر والمستقبل، (مدخل إلى الفكر المركب)، تر، أحمد القصور، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2004، ص 13.
6. إدغار موران: النهج، إنسانية بشرية، الهوية البشرية، ص 120.
7. إدغار موران: إلى أين يسير العالم؟، تر، أحمد العلمي، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، لبنان، ط1، 2009، ص ص 21. 22.
10. فولتير: رسائل فلسفية، تر، عادل زعيتر، التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان، بيروت، ط1، 2014، ص ص 138. 139.
- 11-Edgar Morin : Science avec conscience, P 132.
- 12- Edgar Morin : Le paradigme perdu : La nature humaine , éditions du Seuil, paris, 1973, P 92.
13. إدغار موران: ثقافة أوروبا وبربريتها، ص 08.
14. المرجع نفسه، ص 10.
15. المرجع نفسه، ص 11.
- 16- Patrick Thollard : Barbarie et Civilisation chez Strabon, Centre de recherche d'histoire ancienne, France, 1987, PP 13-19.
17. المرجع السابق نفسه، ص 06.
18. المرجع نفسه، ص 25.
19. المرجع نفسه، ص 26.
- 20- Edmund Husserl : La Crise de L'humanité européenne et la philosophie, traduction par Nathalie Depraz, édition Hatier, France, P 70.
- 21- IBID. p 79.
22. فولتير: رسالة في التسامح، تر، هنرييت عبودي، دار بترا للنشر والتوزيع، دمشق، سوريا، ط1، 2009، ص 77.
23. إدغار موران: النهج، إنسانية بشرية، الهوية البشرية، ص 141.
24. غوستاف لوبون: روح الثورات والثورة الفرنسية، تر، عادل زعيتر، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، جمهورية مصر العربية، 2012، ص 56.
25. المرجع نفسه، ص 57.
26. إدغار موران: إلى أين يسير العالم؟، ص 59.
- 27-Edgar Morin- Jean-Louis Le Moigne : L'intelligence de La Complexité, L'Harmattan, Paris, France, 1999, P 31.
- 28- IBID. P 30.

29- Samuel P. Huntington: Le Choc Des Civilisations, Traduction Jean-Luc Fidel, ODILE JACOB, Paris, 2007, P 16.

30- IBID. P 23.

31- IBID. PP 38-39.

³⁰ <https://major-prepa.com/culture-generale/raison-contre-violence-eric-weil-logique-philosophie> L'homme comme être de raison, mais aussi de violence
<https://major-prepa.com/culture-generale/raison-contre-violence-weil-31-logique-philosophie> 16.03.2025.